يا عروسي ... في قبرها

[لقد تعجلنا يوم الزفاف ... وتعجل القدر
فزفها إلى قبرها ... ولم تلبس ثوب عرسها]

للأستاذ علي متولي السيد

... منذ أربعة شهور تحقق الحلم الذي أمّلناه .. ودنت أو كادت - تلك الأماني التي طالما ترقبناها ... ووضعت يد في يد ... وسأل سائل وأجاب مجيب ... وأخذنا الميثاق ... وتعاقدنا أمام الله والناس ... ثم انفض المجلس وارتفض المعاصر وخلا المكان إلا مني وإلامنك ... ونظرات الحياء ترمقيني بها في سحر وفتنة ... والابتسامة البنفسجية الرائعة تحدثيني بها في خجل ومتعة ... رويداً رويداً ترفع الكلفة بيننا ... فتنطلقين تحدثيني وأنطلق ... ونظل زمناً من الزمن بعيدين عن العالم وما فيه ... الدنيا تبكي ونحن نضحك والعالم كله يقف على أسنة الحراب وألسنة اللهب ونحن في نشوة الفرح نرشف عذب الهوى وفي غمرة الحب نسقي بكأس الأمل ونهزج سوياً بأغاريد السعادة ... وطيور السماء فوقنا تبارك بالنشيد الباسم حبنا الموفق ... وهمسات الأهل والصحب حولنا تؤيد بالدعاء الصادق عهدنا المقدس ... ونحن في حلم الهناء نتعجل يوم الهناء ... فننطلق معاً إلى القاهرة نعدّ معدّات العرس ... ونختلف ونتفق... وأوثر اللون الأحمر وتفضّلين اللون الأخضر، ونفتن في اختيار الأثاث نقلبه على شتى وجوهه ونطرق من أجله كل معرض تزاوج بين ذوق وذوق ... ونرسم معاً — في أنفسنا — حجرة النوم وحجرة الاستقبال وموضع هذا في هذه ومكان هذا في تلك، ثم نعود وقد أعددنا كل شيء ولم تبق إلاّ أيام قليلة نستعد بعدها بالزواج الموفق الهنيء ...

... ثم تدفعني بعض أسباب الحياة لأسافر سفراً قصيراً، وأعودك بعد العودة، وقد حملت لك باقة من زهرات البنفسج التي تحبين وتعشقين... فأجدك طريحة الفراش، وأنظرك فأراك ساهمة واجمة، وأتأمل عينيك فأرى فيهما دمعة حائرة تترجرج ... وأسألك ما بك؟ فتشكين إليّ بذات الجنب ... وأهدئ جزعك، وأنهنه شكواك، وأكتم في نفسي الألم البالغ، وأتمثل الهدوء لأشعرك بأنها نكسة خفيفة ... ونذهب إلى الطبيب ليفحصك ... فيهون الأمر على نفسك وعلى نفسي. ويعطيك دواء حسبتا فيه الشفاء ... وخلناها جميعاً سحابة صيف سريعاً تنكشف. ولكن المرض يلح، ولكن العلة تزداد ... ولكن اللون الأحمر الطبيعي الجميل الذي يزين وجهك يتحول إلى صفرة باهتة فيها معنى الموت ... ولكن عينيك النجلاوين يشوبهما لون غريب يشعر الناظر إليه بمعنى الفناء

... وأقضي الليل مسهداً إلى جانبك مؤرق القلب والفكر مفتوح العين أرمق عينيك الساجيتين فأسمع من نظرتهما معنى الذبول، وأرنو إلى فمك الناعم فيهزني صمته بنشيد الموت. وأجدك تحملين يدك بجهد وتمدينها إليّ متثاقلة لأضمها بين يدي كما كنت تفعلين ... وكأنك تطلبين مني اليوم عهداً جديداً على الوفاء ...

ثم ... ثم ... ثم ما زالت يدك بين يدي تزلزلني شهقتك الطويلة وتسلمين الروح لبارئها . . . وتنتقلين سريعاً — ونحن معاً — من دار إلى دار ...

يا عروساً لم تلبس ثوب عرسها ...

إنها دارك ... وقد زيناها معاً ... فهي محرمة على غيرك ... وسأقضي ما بقي من العمر فيها وحدي ... أرتل — خاشعاً — في محرابها صلوات الهوى الطاهر العف والحب الملائكي النبيل

ها هو ذا رسمك يا عروسي يطالعني صباح مساء وكأنك أنبته

الزمن القديم . لأن الرجوع للوراء مستحيل، ولكني أحب أن أذكرك أنه ليس من الضروري أن يكون القديم فاسداً والجديد صالحاً، فقديماً — وقبل الحكم الديمقراطي، وقبل التعليم العام — كان شعبكم مكوناً من طبقتين: طبقة الأرستقراط، وطبقة العامة. ولم يكن ثمت شيء . وكان العامة صناعاً وعمالاً وزراعاً . وكانوا مسرورين راضين بأعمالهم ومهنهم، قادرين عليها، وكانوا سعداء قانعين بحياتهم، بالرغم من أنهم لم يتمتعوا بنظام التربية العامة الحالي . وقد تركوا شئون الدولة للأعيان والأرستقراط، وكانوا يؤمنون بالتعليم الديني، وكل ما يتعلق بالفضيلة والخطيئة والحياة الآخرة، وهل لي أن أذكرك أيضاً أن ذلك الزمن القديم هو الذي بنت فيه بريطانيا امبراطوريتها، وأنتجت النابغين من رجال الفن ورجال الأدب الذين يحق لها أن تفخر بهم؟ وكان ولاة الأمور في ذلك الوقت ذوي بصر واتزان وحكمة، عليمين بالتبعات الشاقة الملقاة عليهم، وكان الشعب مطمئناً إلى أن السياسة الحكيمة للأمة لا يحسنها إلا الأرستقراط ورجال الدين

(يتبع — بخت الرضا . السودان) عبد العزيز عبد المجيد